# الفصل الرابع

# كتاب الفصل بين كتب الأديان

## علم مقارنة الأديان: نشأته وتطوره

يتميز موقف الإسلام من الأديان الأخرى بخاصتين:

الخاصية الأولى: الناحية النظرية.

الخاصية الثانية: الناحية الواقعية.

فمن الناحية النظرية يعلن الإسلام احترامه لجميع رسل الله، ووجوب الإيمان بهم، كما يجمع المفكرون المسلمون على أن كل رسول يجيء برسالة فإن هذه الرسالة تناسب زمانها وتحقق أغراضها فى ذلك الزمان، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الأديان السابقة فى الأصول الواحدة ويختلف فى الفروع تبعا لحاجات الناس، وهذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان السابقة من الناحية النظرية.

أما من الناحية الواقعية فإنه يعترف بالوجود الفعلى لجماعات غير مسلمة ويتحدث عن أهل الكتاب وأهل الذمة، وينظم حقوقهم وواجباتهم، وفى ضوء هذا الموقف بجانبيه النظرى والعلمى وجد علم مقارنة الأديان فى الفكر الإسلامى[1].

ويعتبر النوبختى (٣٠٢هـ) عند بعض الباحثين[2] أول من ألف فى هذا العلم، ويذكرون له فى هذا المقام كتابه: (الآراء والديانات)، وعندى أن هذا زعم خاطئ، لأننا نجد بين أيدينا مثلا - رسالة للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) «فى الرد على النصارى[3]»..

---

(١) راجع أحمد شلبى: اليهودية ٢٥ - ٢٦.

(٢) انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ / ٣٨٥، وانظر أيضا أحمد شلبى: اليهودية ٢٨ الذى وافق آدم متز فيما ذهب إليه.

(٣) نشرها يوشع فِنْكل، وطبعت فى مصر بالمطبعة السلفية ضمن ثلاث رسائل للجاحظ سنة ١٣٨٢هـ.

وكذلك ألّف المسعودى (ت ٣٤٦هـ) كتابين عن «الديانات» ثم نجد القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥) يخصِّص فى موسوعته المعروفة (المغنى) جزاء خاصا بالفرق والأديان الأخرى[١]. ثم جاء المسبحى (ت ٤٢٠هـ) فكتب كتابه «درك البغية فى وصف الأديان والعبادات» وهو كتاب مطوّل يقع فى حوالى ثلاثة آلاف ورقة، وكثر بعد ذلك التأليف فى هذا المجال، ومن أبرز الكتب التى كتبت عن الملل والنحل كتاب: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (ت ٤٥٦هـ) الذى نحن بصدد دراسته وتحقيقه، وكتاب «الملل والنحل» للشهرستانى (ت ٥٤٨هـ)[٢].

كما ظهر فى هذا المجال كتب أخرى خاصة ببلاد معينة، أو دراسة دين من الأديان أو مجموعة منها، ومن أبرز ما ظهر فى هذا الصدد كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» لأبى الريحان البيرونى (ت ٤٤٠هـ) وهو - كما يبدو من عنوانه - خاص بأديان الهند وليس شاملا للأديان والعقائد المختلفة كالكتب التى أسلفنا الإشارة إليها.. ويُعدّه الأب بينارد لابوليه[٣] من الدراسات الباكرة فى مقارنة الأديان على رغم اقتصاره على ديانات الهند.

ومن هذه الكتب الخاصة أيضا كتاب «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادى (ت ٤٢٩هـ) وكتاب «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» لأبى المظفر الإسفرايني (ت ٤٧١هـ)» وكلاهما مقصور على الفرق الإسلامية.

ومما يسترعى النظر فى المؤلفات الخاصة بالملل والنحل الحيز الكبير نسبيا الذى تشغله ديانات الفرس والهنود مما يدل على قوة التيارات الفكرية: الفارسية والهندية عند اتصالها بالفكر الإسلامى. وتلاحظ سعة هذا الحيز فى كتاب

---

(١) القاضى عبد الجبار: المغنى - الجزء الخامس - الفرق غير الإسلامية تحقيق محمود محمد الخضيرى.

(٢) راجع آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ / ٣٨٥ وراجع أيضا أحمد شلبى: اليهودية ٢٨.

(٣) انظر كتابه: الدراسة المقارنة للديانات ١ / ١٠٨ باريس سنة ١٩٢٩م نقلا عن الأستاذ عبد العزيز عبد الحق: مقدمة تحقيق الرد الجميل ٧٧.

«الفهرست» لابن النديم حيث يتناول مؤلفه مقالات المذاهب والاعتقادات فى قسم يربو على خمسين صفحة[1].

ونذكر فى هذا الصدد أن المسلمين كانوا أول من وضع بعض القواعد المنهجية فى دراسة المِلل والنِّحل وذلك قبل ظهور علم الأديان المقارنة بصورته الجديدة عند الغربيين فى العصر الحديث المعروف باسم: Comparctive Religion.

ومن هذه القواعد إثبات ما يقوله أصحاب الملل والنحل المختلفة والتزام الحيدة فى تقرير وجهة نظرهم دون أية محاولة فى الرد عليها أو إظهار بطلانها أو تهافتها بالنسبة لما يدين به الباحث تجاه عقائدهم. وأصدق مثال لذلك كتاب مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٠هـ[2] الذى سبق أن أشرنا إليه.

أما فيما يتعلق بالمؤلفات الجدلية الخاصة بالمسيحية فمن أقدم ما ذكر منها بعض مؤلفات أبى الحسن الأشعرى المفقودة مثل كتاب الفصول الذى وصفه ابن عساكر بأنه يشتمل على اثنى عشر كتابا ردّ فيه الأشعرى على البراهمة واليهود والنصارى والمجوس، كما ألف كتابا آخر بيّن فيه عقيدة النصارى، وكتابا ثالثا بين فيه تهافت هذه العقيدة.

وقد أسهم الإمام أبو حامد الغزالى فى هذا الميدان بكتاب رد فيه على النصارى، عنوانه «الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل» الذى اكتشفه المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون وقام بتحقيقه الأب روبير شدياق اليسوعى ونشر فى باريس سنة ١٩٣٩م ثم أعاد نشره فى العالم العربى[3] وقام بترجمة مقدماته والتعليق على بعض نصوصه الأستاذ عبد العزيز عبد الحق الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

---

(١) (من ص ٤٤١ – ٤٩٣) والتوراة والإنجيل (من ص ٣٤ – ٣٦) والفرق المسيحية (ص ٤٧٤، ص ٤٧٩) من طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت (بدون تاريخ).

(٢) عبد العزيز عبد الحق: تحقيق كتاب الرد الجميل (مقدمة التحقيق ٨٧ – ٧٨).

(٣) طبع بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٣٩٣هـ.

وقد نشطت الحركة الجدلية بين المسلمين والمسيحيين فى بلاد الأندلس لكثرة الذميين فى تلك البلاد. ولعل أحسن ما كتب الأندلسيون فى الرد على النصارى - بعدد كتاب ابن حزم - كتاب «تحفة الأريب فى الردّ على أهل الصليب» للشيخ عبد الله الترجمان الميورقى الذى كان قسيسا ثم هداه الله للإسلام، وقد قمت بتحقيق هذا الكتاب على عدة مخطوطات وعلقت على الغامض من نصوصه، وأرجو أن يطبع قريبا - بإذن الله - حتى يعم النفع به.. وهناك كتاب آخر فى الرد على النصارى لابن أبى عبيدة (بفتح العين المهملة) رد فيه على بعض القسيسين فى طليطلة أسماه: «مقامع الصلبان فى الرد على عبدة الأوثان» وقد حقق هذا الكتاب صديقنا الأستاذ الدكتور محمد شامة ونشره بعنوان: «بين الإسلام والمسيحية».

أما فى العصر الحديث فقد كثر التأليف فى هذا العلم كثرة وافرة، ولكن يكفى أن أنوه بكتاب العلامة الشيخ رحمت الله الهندى: «إظهار الحق» فقد بذل فيه صاحبه جهدا يدل على قوة عقله، وسعة ثقافته..

## مقارنة بين كتاب الشهرستانى وكتاب ابن حزم

ونظرا لأهمية كتاب «الملل والنحل» للشهرستانى، وشهرته فى الأوساط العلمية فسوف نختاره من بين كتب الأديان والنحل الأخرى لنقارن بينه وبين كتاب (الفَصْل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم.. وعندما نقارن بين هذين الكتابين يجب أن نذكر أن الشهرستانى كان يعرض الفكرة كما يدين بها أصحابها دون نقد لأصولها أو توضيح لخطئها، وقد عاب بعض العلماء هذه الطريقة خوفا من ثبوت الفكرة الخاطئة فى الأذهان عند من يطالعها دون معرفة بما يكشف زيفها وبطلانها، ومن ثم نرى الإمام الفخر الرازى يضيق بكتاب الشهرستانى ويقول عنه: «إنه كتاب حكى فيه (الشهرستانى) مذهب أهل العالم بزعمه، إلا إنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية عن كتاب «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادى، وهذا كان شديد التعصب على المخالفين، ولا يكاد مذهبهم على الوجه الصحيح، ويرى الفخر الرازى أن مجرد الرد لا يكفى بل لا بد أن يكون الرد مقنعا، والبلاغ كاملا، ولذلك يقول: العَجَبَ

العجَبَ منك أن تنسب الناس إلى الميل إلى أعداء الدين، ولا تعرف أن إبطال شبهات الملحدين بالأجوبة الخسيسة الضعيفة سعى فى تقوية شبهاتهم..»[1] مهما يكن من أمر، فالذى نراه أن الشهرستانى على قدر اجتهاده يقر فى كتابه عقائد المِلَل والنِّحل المختلفة «كما وجدها فى كتبهم من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم دون أنْ يبين صحيحه من فاسده، ويعيّن حقه من باطله[2]».

فإذا ما ولينا وجهنا شطر ابن حزم فى كتابه (الفصل) ألفيناه يتبع منهج التقرير والنقد، وذلك حين يقرر هذه العقائد ثم يكرّ عليها بعد ذلك بنقد يشهد إمَا لها وإما عليها، فالطابع الغالب إذن على كتاب ابن حزم هو النقض والتفنيد، والدحض وإظهار التهافت والبطلان فيما يراه باطلا من هذه العقائد، على أن مادة كتاب الفصل تؤكد هذا الطابع الجدلى الذى نزعمه لابن حزم.

ولا ريب أن منهج الدحض والتفنيد للآراء الباطلة بعد عرضها وتقريرها أفضل من الطريقة التى سلكها الشهرستانى واكتفى فيها بالتوضيح والتقرير فحسب، لأن دراسة الشبهة دون بيان لمخاطرها قد تترك أثرا فى نفس القارئ فتعلق بذهنه دون أن يدرى جوابا عليها، وخصوصا للمبتدئين الذين لا يميزون بين صحيح الآراء وباطلها، بجانب أن معرفة الآراء وعرضها سهل ميسور، أما الرد على الباطل منها فيحتاج إلى قدرة خاصة فى الجدل، فليس كل من يؤرخ لعقيدة يمكنه أن يضع يده على مواطن القوة والضعف فيها كما فعل العلامة ابن حزم فى كتابه الفصل..

وإذا علمنا أن ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) كان سابقا للشهرستانى (ت٥٤٨هـ) نستطيع أن نقول: «إن كتاب الفصل لابن حزم بما اشتمل عليه من نقد علمى للتوراة والإنجيل يعتبر أول دراسة نقدية لنصوص الكتاب المقدس تسبق بآماد طويلة تلك الدراسة التى ظهرت بوادرها فى أوربا فى القرن السابع عشر وازدهرت فى القرن التاسع

(١) نقلا عن عبد العزيز عبد الحق: مقدمة الرد الجميل ٩٠.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ١ / ٢٣ (بتصرف).

عشر..[1]» مما جعل لابوليه يصرح بقوله: «إن المسائل الاعتقادية التى عالجها فيما بعد أحبار المسيحية - ممن ذكر أسماءهم - سبق أن بحثها ابن حزم وناقشها فى كتابه الفصل[2]». ولقد لاحظت أثناء مطالعتى للدراسة التى قدمها موريس بوكاى عن الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة[3]، أن كثيرا من هذه التناقضات التى أثبت العلم الحديث وجودها فى كتب اليهود والنصارى قد سبق بها ابن حزم وذكرها فى كتابه «الفصل» منذ القرن الرابع الهجرى، مما يدل على قيمة هذا الكتاب ومكانة صاحبه، ومن هنا عرف علماء الغرب لهذا الكتاب قدره - برغم ما يتضمنه من نقد وتفنيد قد يمس عقائدهم من قريب أو من بعيد، كما أضفوا على صاحبه هالة من التقرير والإجلال حملت المستشرق الأسبانى «آسين بلاثيوس» على أن يعنى بكتاب «الفصل» ويقضى سنوات طويلة فى دراسته بعد المقابلة بين مخطوطاته، ويعكف على تحليل مادته والتعليق عليه وترجمة بعض أجزائه إلى الأسبانية، وقد أخرج هذه الدراسة فى خمسة مجلدات ظهرت تباعا فى مدريد من سنة ١٩٢٧م إلى سنة ١٩٣٢م.

ولا ريب أن ابن حزم يرجع إليه فضل الأسبقية فى طريقة التبويب، والاستنباط وانتظام التفكير، وسعة الاطلاع، وشمول النظرة، ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة تكرار عبارة: «وهذا معنى لم يسبق إليه» فى كثير من الكتب التى ترجمت لابن حزم ولطريقة عرضه فى كتابه «الفصل»[4].

فهذه بعض شهادة علمائنا الأوائل بأن إمامنا الجليل كان له قصب السبق فى هذا الميدان، وإذا ما ذهبنا إلى كتابات المحدثين تعترف لابن حزم بهذا السبق الرائد فى علم مقارنة الأديان، يذكر بلانثيا: أن كتاب الفصل هو أشهر ما ألف ابن حزم فى مادة التاريخ وأعظمه قيمة، وإنه تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب حافل بما فيه

(١) عبد العزيز عبد الحق: مقدمة تحقيق الرد الجميل ٨١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى. نشر دار المعارف بمصر.

(٤) راجع على سبيل المثال: الحميدى: جذوة المقتبس ٣٠٩، وأيضا: الضبى: بغية الملتمس وأيضا: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣ / ٣٢٦.

من مادة وأفكار، يعرض لشتى مذاهب الذهن البشرى فى موضوع الدين، من الشك المطلق الذى عليه السوفسطائيون، إلى إيمان العوام الذين يصدقون كل شىء، ويؤمنون بالخرافات فى جهل ولا يشكون فى شىء[٥]» ويقول، بلانثيا: «إنه نتيجة لذلك صار كتاب ابن حزم تاريخا لعلم الكلام فى الإسلام مع اتجاه واضح لبيان فضائله، وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعى المتجرد عن هوى صاحبه[٦]». ويقول الدكتور «فيليب حتى» عن كتاب «الفصل»:

أما أنفس كتب ابن حزم الباقية إلى الآن وأفيدها فهو كتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» الذى يؤهل مؤلفه لاحتلال مركز الأولية بين العلماء الذين عنوا بدراسة الأديان على سبيل النقد والمعارضة.. وفى هذا الكتاب لفت ابن حزم الأنظار إلى بعض مشكلات فى قصص التوراة لم يتنبه لها فكر أحد العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمى فى القرن السادس عشر[٧]».

ويقول «بروكلمان» عن كتاب الفصل: »إنه مؤلف دينى تاريخى عظيم، وهو كتاب لم يسبق إلى مثله فى الأدب العلمى[٨]».

وقول المستشرق (جب): إن ابن حزم كُرِّم فى الغرب باعتباره مؤسسا لعلم مقارنة الأديان[٩].

ويقول المستشرق ألفريد جيوم: إن باحثًا مثابرا كابن حزم القرطبى قد استطاع أن يحشد قواه ليؤلف أول موسوعة دينية أوربية، وليكتب أول دراسة على مستوى عال من النقد والترابط حول العهدين القديم والجديد[١٠].

فهذا أيضا بعض آراء المحدثين فى سبق ابن حزم إلى هذا الميدان، وهو إن لم يكن سبقا زمنيا إلى تناول الموضوع فهو سبق فى منهج البحث، وفى إقامة بنيان هذا

(٥) تاريخ الفكر الأندلسى ٢٢١ (ترجمة حسين مؤنس).
(٦) المرجع السابق ٢٢٧.
(٧) العرب تاريخ موجز ١٨٢.
(٨) تاريخ الشعوب الإسلامية ٣١٣ ط. السابعة (دار العلم للملايين).
(٩) (نقلا عن الدكتور عويس ٣٨٨).
(١٠) (نقلا عن الدكتور عويس ٣٨٨).

العلم على أساس من الدراسة المقارنة النقدية، وليس على مجرد السرد الوصفى، أو الهجوم المسبق، دون الرجوع إلى المصادر الأصلية لكل نحلة من النحل أو مذهب من المذاهب، وهذا هو السبق الحقيقى الذى نراه لابن حزم فى كتابه الفصل.

* * *

وقد أخذ بعض الباحثين على كتاب الشهرستانى بعض المآخذ التى وقع فيها صاحبه:

١ - من هذه المآخذ أن الشهرستانى قال إنه سيذكر مقالات أهل العالم من لدن آدم إلى يومه[١]، ولكنه أغفل بعض هاتيك المقالات، فلم يذكر - مثلا - مقالات قدماء المصريين، كما لم يذكر حتى الموحدين اتباع ابن تومرت الذين أدالوا دولة الملثمين[٢] فى المغرب، مع أنه يقول عن الواصلية: «وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة» يعنى بعد أن استقرت الحال بالموحدين هناك بأكثر من سبع سنوات كما أنه لم يذكر المتصوفة مطلقا، لا فى أصل الفرق، ولا فى فروعها[٣].

٢ - وقد عاب - الدكتور محمد بن فتح الله بدران على الشهرستانى اعتماده على حديث الانقسام، الذى يقول فيه النبى ﷺ «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منهم واحدة، والباقون هلكى» قيل: ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة قيل: وما السنة والجماعة؟ قال «ما أنا عليه وأصحابى[٤]».

ويقول الدكتور بدران: وكم كنا نود أن يعرض الشهرستانى عن هذه الأخبار، وتلك الأحاديث ولا يعتمد عليها، خصوصا وقد سبقه ابن حزم فى كتابه الفصل

(١) الملل والنحل ١ / ٤١.

(٢) الملثمون: هم المرابطون، ملك أولهم يوسف بن تاشفين المغرب، ثم استولى على بعض بلاد الأندلس ابن عباد سنة ٤٨٤هـ ثم انتقلت إمارة المسلمين فى المغرب منه إلى ابنه على فإلى تاشفين بن على، وأخيرا إلى إسحاق بن على الذى غلبه على أمره وقتله عبد المؤمن أمير الموحدين (الشيخ بدران: المدخل ٢٠٣).

(٣) بدران: المدخل ٢٠٣.

(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ١ / ٢١.

بتقرير حديث افتراق الأمة، وأنه حديث لا يصح أصلا من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به[1].

والإنصاف يقتضى أن نقرر: أن اعتماد الشهرستانى على هذا الحديث لا غبار عليه، والقول بعدم صحة الحديث زعم خاطئ، لأن الزبيدى فى «إتحاف السادة المتقين» يذكر أن حديث التفرق: رواه أربعة عشر صحابيا بألفاظ مختلفة، بعضها بإسناد ضعيف، وبعضها بإسناد صحيح، ذكر منها رواية ابن جرير فى التفسير، قال: رجاله رجال الصحيح، كما ذكر رواية الترمذى، وقوله «حسن صحيح» وكذا رواه «ابن حيان» فى صحيحه، وقد أورد أيضا رواية الطبرانى فى الكبير، وقال: «رواته موثقون»[2].

كما يذكر الحافظ بن كثير فى كتابه (الفتن والملاحم) رواية ابن ماجه وقال: هذا إسناد قوى على شرط الصحيح كما ذكر - أيضا - رواية أبى داود، وقال: «إسناد حسن[3]».

٣ - وهناك بعض الأخطاء العلمية التى وقع فيها الشهرستانى وهو يؤرخ للملل والنحل المختلفة:

( أ ) من ذلك قوله عن النسطورية - من فرق النصارى - أنهم أصحاب نسطور الحكيم، الذى ظهر فى زمان المأمون، وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه[4]» وهذا خطأ لأن نسطور كان بطريركا بالقسطنطينية سنة ٤٢٨م ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين كما ذكر ابن البطريق وغيره من مؤرخى المسيحية[5]، فهو سابق

(١) راجع الفصل.

(٢) راجع محمد الحسينى الزبيدى: إتحاف السادة المتقين (٨ / ١٤٠) دار إحياء التراث العربى (بيروت - لبنان).

(٣) راجع ابن كثير: الفتن والملاحم ١ / ١٨ تحقيق طه محمد الزينى (دار الكتب الحديثة).

(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ١ / ٢٠٥.

(٥) راجع تاريخ ابن البطريق ١ / ١٥٦ - ١٦٠ والدكتور على وافى: الأسفار المقدسة ١١٤ والأستاذ أبا زهرة: النصرانية ١٦٢، ١٨٨ وراجع أيضا كلام ابن حزم عن هذه الفرقة وتعليقنا عليه.

للمأمون بزمن طويل حيث كانت خلافته بين عامى ٨١٣م إلى ٨٣٣م كما هو ثابت تاريخيا..

(ب) وكذلك يخطئ الشهرستانى عندما يقول عن الملكانية - فرقة نصرانية - إنهم أصحاب ملكا، والذى ظهر بأرض الروم، واستولى عليها[١]، فليس هناك فى تاريخ النصرانية شخص اسمه «ملكا» ابتدع مذهبا واستولى على بلاد الروم.. وإنما الصحيح أن مذهب الملكانى أو الملكانية نسبة إلى الملك، لأنه المذهب الرسمى الذى أخذت به قياصرة الدولة الرومانية الشرقية، ويطلق على اتباع هذا المذهب - أيضا - «الكاثوليك» وهى كلمة يونانية بعنى «العام» أو «العالمى» أى أنها الديانة العامة العالمية.. ولقد أحسن ابن حزم فى «الفصل» عندما عرف مذهب الملكانية فقال: «الملكانية»: وهى مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا ما عدا الحبشة والنوبة[٢]».

وقد كان لكتاب الفَصْل - أيضا - نصيبه من المآخذ، ولعل أبرزها:

( أ ) تلك القسوة أو العنف الذى اتسم به ابن حزم فى الرد على المخالفين، ولذلك قال فيه ابن حيان «كان يصك معارضه صك الجندل».. وفى هذا المعنى قال ابن العريف فيما نقله عنه ابن خلكان: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين» ولقد تحدثنا عن تلك المسألة فى موضع سالف من هذا الكتاب[٣].

(ب) ورد فى دائرة المعارف الإسلامية: «أن الترتيب المنطقى لهذا الكتاب - الفَصْل - مضطرب إلى حدٍّ ماَ بسبب إدماج رسائل مستقلة فيه، ومن تلك الرسائل المندمجة:

١ - من الجزء الأول ص ١١٦ إلى الجزء الثانى ص ٩١ من النسخة المطبوعة وهى فيما هو ظاهر عين: «كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم منها مما لا يحتمل التأويل».

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ١ / ٢٠٣.

(٢) ١ / ٤٨ - وانظر - أيضا ما كتبه الدكتور على وافى فى مقدمة ابن خلدون ٢ / ٥٩٩ (هامش) وقد أورد الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عند حديثه عن كتاب «الملل والنحل» للشهرستانى نماذج أخرى من الأخطاء التى وقع فيها المؤلف (راجع: تراث الإنسانية م الرابع ص ١٥٢).

(٣) راجع ما مر فى ص ١٤٠، ١٤١.

٢ - الجزء الرابع من صفحة ١٧٨ إلى ٢٢٧، وهى تضم رسالة «النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع والفرق الأربع المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة» وقد ترجم منها فريد ليندر وفسر بإسهاب الفصل الخاص بالشيعة معتمدا على المخطوطات المختلفة (جـ ٤ ص ١٧٨ - ص ١٨٨) وكتب إلمامة عن آراء المخالفين لأهل السنة (جـ ٢ ص ١١١ - ١١٧) وخصص فصلين للكلام عن مذاهب الشيعة مع إضافة تعليقات إيضاحية.

٣ - وقد يكون من هذه الرسائل المدمجة «الإمامة والمفاضلة» من ص ٨٧ إلى ١٧٨ من الجزء الرابع) وهى التى قارن فرد ليندر اسمها باسم الرسالة التى ذكرها ياقوت عن ابن حيان، وهى «الإمامة والسياسة فى قسم سير الخلفاء ومراتبها والواجب منها» ولربما كانت رسالة ابن حزم المسماه «فى المفاضلة بين الصحابة» (مخطوط فى دمشق، حبيب الزيات: خزائن الكتب فى دمشق وضواحيها ص ٨٢ س ٤) هى نفس الرسالة المذكورة آنفا»[1].

ولقد قال السبكى أيضا فى كتابه «طبقات الشافعية» عندما عرض لكتاب «الفَصْل»: »وكتاب الملل والنحل للشهرستانى هو عندى - خير كتاب صنف فى هذا الباب، ومصنف ابن حزم وإن كان أبسط منه إلا إنه مبدد ليس له نظام[2]«.

وبرغم أن السبكى ممن عرفوا بتحاملهم على ابن حزم وعدم إنصافه، فإن دعواه بأن كتاب الفصل يحتاج إلى النظام فيها شىء من الصحة إذا تركنا جانب المبالغة الذى توحى به العبارة المذكورة.

ويظهر هذا الأمر واضحا عند حدوث المؤلف عن النصرانية، فنحن نراه يبدأ الحديث عنهم فى الجزء الأول فيذكر فرقهم وعقائدهم، ثم يستطرد على عادة القدماء فيتحدث عن النبوات، وتناسخ الأرواح، حتى يصل إلى اليهود، ويأخذ الحديث عنهم بقية الجزء الأول، ثم نراه يعود إلى النصارى مرة أخرى فى الجزء الثانى فيذكر أناجيلهم وما حوت من كذب وتناقض.. أما بقية المباحث فالواضح لنا أنها فى عمومها جاءت حسب منهجه الذى وضعه لنفسه فى ترتيب الكتاب.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٢٥٤ وما بعدها (ط. دار الشعب).

(٢) نقلا عن عبد العزيز عبد الحق: مقدمة الرد الجميل ٨٩.

(جـ) كما أن ابن حزم لم يلتزم دائما بمنهجه الذى وضعه لنفسه فى مناقشة أهل الكتاب والذى قال عنه: «وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئا يمكن أن يخرج على وجه ما وإن دقّ وبَعُد، فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له، وكذلك أيضا لم نخرج منه كلاما لا يفهم معناه وإن كان ذلك موجودا فيها لأن للقائل أن يقول: قد أصاب الله به ما أراد، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا وجه أصل إلا الدعاوى الكاذبة التى لا دليل عليها أصلا لا محتملا ولا خفيا..[1]».

وقد بينت عند تحقيقى لكتاب الفصل الحالات التى رأيت أن المؤلف خالف فيها منهجه فلا نعيد ما ذكرناه هناك..

( د ) لا نسلم لابن حزم زعمه بأن عدد الزرادشتيين فى عهده لا يزيد على أربعين فى جميع الأرض[2].وما ذهب إليه من أن سد يأجوج ومأجوج موجود، ومكانه معروف فى أقصى الشمال فى آخر المعمور منه[3].

ولعل من المناسب فى فصل يتحدث عن مكانة «الفصل» بين كتب وتاريخ مقارنة الأديان أن نذكر أن هناك بعض الصفات التى يتفق فيها الشهرستانى مع ابن حزم فى كتابيهما اللذين يعتبران أهم الكتب الباقية من المؤلفات الإسلامية فى هذا الباب: ويتجلى ذلك فى أمرين:

الأول: تحرى الدقة والضبط فى حكاية ما يقول به أصحاب المقالات، فابن حزم ينعى فى مقدمة كتابه «الفصل» على المصنفين فى الملل والنحل استعمال الأغاليط والشغب وظلمهم لخصومهم إذ لم يوفوهم حق اعتراضهم[4].

يقول المستشرق أرندونك فى مادة ابن حزم فى الموسوعة الإسلامية، إنه «كان يتوخى إنصاف خصومه دائما، ولم يكن من طبعه أن يتعمد اختلاق التهم الواهية يرميهم بها[5]».

---

(١) الفصل ١ / ١١٧.

(٢) راجع الفصل ١ / ١١٥.

(٣) راجع الفصل ١ / ١٢٠.

(٤) ابن حزم: مقدمة الفصل.

(٥) عبد العزيز عبد الحق: مقدمة تحقيق الرد الجميل ص ١٠٣.

والشهرستانى يقول فى مقدمة كتابه: «وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم، من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم، دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعين حقه من باطله[1]» ويقول الأب «يوسف العضم» اليسوعى، بعد أن حقق الجزء الخاص بالنصارى وعلق عليه وكتب له مقدمة يقول فيها: «وتحقيقا لهذا الغرض لجأ المؤلف إلى كتب المسيحيين يتفهم معتقدهم وينقل عنهم، فجاء كلامه فى كثير من المواضع ترديدا لكلامهم، وعباراته ترجيعا لعباراتهم... وقد دل دلالة صادقة على الفروق، وحرص على ذكر مصطلحاتهم التى أخذها من كتبهم فجاء هذا برهانا على اطلاعه وأمانته فى النقل[2]».

ويقول «كارادى فو» عن الشهرستانى أيضا: «وهو بالنسبة لتحليل المذاهب كان دقيقا جدا، وموضوعيا للغاية بصفة عامة»[3].

الثانى: الاتساع والشمول، إذ إن كثيرا من كتب الأديان اقتصر على الفرق الإسلامية مثل: مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى، والتبصير فى الدين للأسفرايني، أما كتاب ابن حزم وكتاب الشهرستانى فقد اهتما بتاريخ الأديان جميعا.

---

(١) الملل والنحل ١ / ٢٣.

(٢) الدكتور بدران: مقدمة كتاب الملل والنحل ١٢.

(٣) المرجع السابق: الموضوع نفسه.